دواب وغير ذلك فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها وقرأ ما فيها ثم يمضي إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ويتسلم ما فيها ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر وأنفق على المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه حتى على الجمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره فلم يكن في العسكر من يشتري شيئاً لنفسه ولا لدوابه تسعة عشر يوماً وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم (نحو مليون جنيه) وأمر المأمون له عند انصرافه بعشرة آلاف ألف درهم وأقطعه فم الصلح وأطلق له خراج فارس، وكور الأهواز مدة سنة. وهذا سرف عظيم سهل أمره الموارد الكثيرة.

وفاة المأمون:

بينما كان المأمون ببلاد الروم في آخر غزواته وهو بالبدندون شمالي طرطوس أصابته حمى لم تمهله كثيراً وفي ١٨ رجب (سنة ٢١٨) أدركته منيته فحمل إلى طرطوس ودفن بها وكانت سنه إذ توفي ٤٨ سنة.

ولاية العهد:

عهد المأمون وهو مريض إلى أخيه أبي إسحاق بن الرشيد ولم يخطىء خطأ من قبله بالعهد إلى اثنين وأوصاه بوصية مأثورة تقدم منها أشياء ومما جاء فيها (واعمل في الخلافة إذا طوقكها اللّه عمل المريد للّه الخائف من عقابه وعذابه ولا تغتر باللّه ومهلته فكأن قد نزل بك الموت ولا تغفل أمر الرعية الرعية الرعية العوام العوام فإن الملك بهم وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم اللّه اللّه فيهم وفي غيرهم من المسلمين ولا ينهين إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم إلا قدمته وآثرته على غيره من هواك وخذ من أقويائهم لضعفائهم ولا تحمل عليهم في شيء وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم وقربهم وتأنهم وعجل الرسلة عني والقدوم إلى دار ملكك بالعراق وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم فلا تغفل عنهم في كل وقت).

٨ ـ المعتصم

هو أبو إسحاق محمد بن الرشيد بن المهدي بن المنصور وأمه أم ولد اسمها ماردة ولد (سنة ١٧٩) فبينه وبين أخيه المأمون تسع سنوات وكان في عهد أخيه المأمون والياً على الشام ومصر وكان المأمون يميل إليه لشجاعته فولاه عهده وترك ابنه وفي اليوم الذي توفي فيه المأمون ببلاد الروم بويع له بالخلافة ولقب بالمعتصم باللّه في ١٩ رجب (سنة ٢١٨) (١٠ أغسطس سنة ٨٣٣) ولم يزل خليفة إلى أن توفي بمدينة سامرا في ١٨ ربيع الأول (سنة ٢٢٧) (٤ فبراير

سنة ٨٤٢) فكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام.

وكان يعاصره في الأندلس عبد الرحمٰن الثاني بن الحكم بن هشام رابع أمراء بني أمية بالأندلس (٢٠٦ ـ ٢٣٨).

ويعاصره في المغرب الأقصى من الأدارسة محمد بن إدريس بن إدريس (٢١٣ ـ ٢٢١) ثم علي بن محمد (٢٢١ ـ ٢٣٤).

ويعاصره في إفريقية من الأغالبة زيادة اللّه بن إبراهيم بن الأغلب (٢٠١ ـ ٢٢٣) ثم الأغلب بن زيادة اللّه (٢٢٣ ـ ٢٢٦) ثم محمد بن الأغلب بن زيادة اللّه (٢٢٦ ـ ٢٤٢).

ويعاصره في اليمن محمد بن إبراهيم الزيادي الذي ولاه المأمون (٢٠٣ ـ ٢٤٥).

ويعاصره في خراسان الأمير عبد اللّه بن طاهر الذي ولاه المأمون (٢١٣ ـ ٢٣٠).

ويعاصره في مملكة الروم بالقسطنطينية توفيل بن ميخائيل (٨٢٩ ـ ٨٤٢).

ويعاصره في فرنسا لويز الأول الملقب باللين (٨١٤ ـ ٨٤٠) ثم شارل الملقب بالأصلع (٨٤٠ ـ ٨٧٧).

الأحوال في عهد المعتصم:

بعد أن تمت البيعة للمعتصم ببلاد الروم عاد بالعسكر قاصداً بغداد بعد أن أمر بهدم ما كان المأمون أمر ببنائه بطوانة وحمل ما كان بها من السلاح والآلة وغير ذلك مما قدر على حمله وأحرق ما لم يقدر على حمله وأمر بصرف من كان المأمون أسكنه ذلك من الناس إلى بلادهم. وكان دخول المعتصم بغداد يوم السبت مستهل رمضان (سنة ٢١٨).

وزراء المعتصم:

الفضل بن مروان بن ماسرخس. كان رجلاً نصرانياً من أهل البردان وكان متصلاً برجل من العمال يكتب له وكان حسن الخط ثم صار مع كاتب كان للمعتصم قبل أن يستخلف وهذا الكاتب هو يحيى الجرمقاني فلما مات يحيى صير الفضل في موضعه ولم يزل كذلك حتى بلغ المعتصم الحال التي بلغها والفضل كاتبه. لما خرج المعتصم مع المأمون في غزوته الأخيرة وكان الفضل ببغداد ينفذ أمور المعتصم ويكتب على لسانه بما أحب فلما بلغه موت المأمون قام بأمر بيعة المعتصم ببغداد وضبط الأمور حتى قدم المعتصم بغداد خليفة فعرف له فضل اجتهاده ونشاطه فسلم إليه أمر الخلافة وخلع عليه ورد أموره كلها إليه فغلب عليه بطول خدمته وتربيته واستقل بالأمور ولم يزل على ذلك سنتين فلما بدا للمعتصم استبداده بالأمور ثقل عليه. كان يدخل على المعتصم فيقول له احمل إلى كذا وكذا من المال فيقول ما عندي فيقول فاحتلها من وجه مَن

الوجوه فيقول ومن أي أحتالها ومن يعطيني هذا القدر من المال وعند من أجده فكان ذلك يسوء المعتصم ويعرف في وجهه. وكان للمعتصم رجل مضحك اسمه إبراهيم الهفتي كان يصحبه قبل الخلافة فيقول له فيما يداعبه واللّه لا أفلحت أبداً فلما ولي المعتصم أمر للهفتي بمال وأمر الفضل أن يعطيه إياه فلم يفعل فبينا الهفتي يوماً عند المعتصم بعد ما بنيت له داره التي ببغداد واتخذ له فيها بستان قام المعتصم يمشي في البستان ينظر إليه وإلى ما فيه من أنواع الرياحين والغروس ومعه الهفتي وكان رجلاً مربوعاً ذا كدنة والمعتصم رجلاً معرقاً خفيف اللحم فجعل المعتصم يسبق الهفتي في المشي فإذا تقدم ولم يره التفت إليه فقال مالك لا تمشي يستعجله في المشي فلما كثر ذلك من أمر المعتصم قال له الهفتي مداعباً كنت أراني أماشي خليفة ولم أكن أراني أماشي فيجا واللّه لا أفلحت ـ فضحك المعتصم وقال ويلك وهل بقي من الفلاح شيء لم أدركه بعد الخلافة فقال الهفتي أتحسب أنك أفلحت الآن إنما لك من الخلافة الاسم واللّه ما يجاوز أمرك أذنك وإنما الخليفة الفضل بن مروان الذي ينفذ أمره من ساعته فقال المعتصم أي أمر لي لا ينفذ فقال الهفتي أمرت لي بكذا وكذا منذ شهرين فما أعطيت مما أمرت به منذ ذاك حبة فاحتجنها المعتصم على الفضل مع ما سبق له معه فأول ما فعله أن جعل عليه زماماً في نفقات الخاصة وهو أحمد بن عمار الخراساني وزماماً في الخراج وجميع الأعمال وهو نصر بن منصور. ثم زاد الأمر واستفحل فاشتد غضب المعتصم عليه وعلى أهل بيته وأمرهم برفع ما جرى على أيديهم أي تقديم الحساب عما وصل إليهم من المال وعما صرفوه ولما فرغ الحساب أمر بحبس الفضل وأن يحمل إلى منزله ببغداد ثم نفي إلى قرية في طريق الموصل يقال لها السن وبقي كذلك حياة المعتصم قال الصولي في أخبار الوزراء: إن المعتصم أخذ من بيته لما نكبه ألف ألف دينار وأخذ أثاثاً وآنية بألف ألف دينار.

كان الفضل قليل المعرفة بالعلم جيد الكتابة ومن المأثور عنه: لا تتعرض لعدوك وهو مقبل فإن إقباله يعينه عليك ولا تتعرض له وهو مدبر فإن إدباره يكفيك أمره واستمرت حياة الفضل بن مروان إلى (سنة ٢٥٠).

واستوزر المعتصم بعد الفضل أحمد بن عمار الخراساني الذي تقدم ذكره فلم يكن فيه كفاية كتابية. ورد على المعتصم كتاب من بعض العمال فقرأه الوزير عليه وكان في الكتاب ذكر الكلأ فقال المعتصم ما الكلأ فقال لا أدري. فقال المعتصم خليفة أمي ووزير عامي (وكان المعتصم ضعيف الكتابة) ثم قال أبصروا من بالباب من الكتاب فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات فأدخلوه إليه فقال له ما الكلأ ـ فقال الكلأ العشب على الإطلاق فإن كان رطباً فهو الخلأ فإذا يبس فهو الحشيش وشرع في تقسيم أنواع النبات فعرف المعتصم فضله واستوزره.

محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيات: كان جده أبان رجلاً قروياً من الدسكرة يجلب الزيت من موضعه إلى بغداد فعرف محمد به. نشأ محمد ببغداد فتعلم وتأدب ونال من ذلك حظاً وافراً حتى قيل إن أبا عثمان المازني لما قدم بغداد في أيام المعتصم كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه في علم النحو فإذا اختلفوا فيما يقع فيه الشك يقول لهم أبو عثمان ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب (يعني ابن الزيات) فاسألوه فاعرفوا جوابه فيفعلون ويصدر جوابه بالصواب الذي يرتضيه أبو عثمان ويوقعهم عليه. وكان محمد في أول أمره من الكتاب بالديوان فحصلت المسألة التي شرحناها في تاريخ أحمد بن عمار فاستوزره المعتصم فقام بأمر الوزارة خير قيام واستمر وزيراً إلى وفاة المعتصم وخدم الخلفاء بعد ذلك كما يأتي:

وكان محمد بن عبد الملك مع علمه وأدبه ومعرفته بخدمة الملوك شاعراً ظريفاً عده دعبل بن علي في طبقات الشعراء وذكره أبو عبد اللّه هارون بن المنجم في كتابه البارع ومن رقيق شعره قوله في موت أم ابنه ولابنه ثماني سنوات:

ألا من رأى الطفل المفارق أمه ... بعيد الكرى عيناه تنسكبان
رأى كل أم وابنها غير أمه ... يبيتان تحت الليل يتجيان
وبات وحيداً في الفراش تجيبه ... بلابل قلب دائم الخفقان
فهبني أطلت الصبر عنها لأنني ... جليد فمن للصبر بابن ثمان
ضعيف القوى لا يعرف الصبر جسـ ... ـمه ولا يأتسي بالناس في الحدثان

وقد مدحه الوليد بن عبادة الشاعر المعروف بالبحتري بقصيدة مطلعها:

بعض هذا العتاب والتفنيد ... ليس ذم الوفاء بالمحمود

يقول فيها واصفاً ما منحه من البلاغة:

لتفننت في الكتابة حتى ... عطل الناس فن عبد الحميد
في نظام من البلاغة ماشـ ... ـك امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا ... حك في رونق الربيع الجديد
مشرق في جوانب السمع ما يخـ ... ـلقه عوده على المستعيد
ما أعيرت منه بطون القرا ... طيس وما حملت ظهور البريد
مستميل سمع الطروب المعنى ... عن أغاني مخارق وعقيد
حجج تخرس الألد بألفا ... ظ فرادى كالجوهر المعقود
ومعان لو فصلتها القوافي ... هجنت شعر جرول ولبيد

حزن مستعمل الكلام اختياراً وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدر كن به غاية المراد البعيد
كالعذارى غدون في الحلل البيـ ـض إذا رحن في الخطوط السود
قد تلقيت كل يوم جديد يا أبا جعفر بمجد جديد
يئس الحاسدون منك وما مجـ ـدك مما يرجوه ظن الحسود
وإذا استطرفت سيادة قوم بنت بالسؤدد الطريف التليد
وذوو الفضل مجمعون على فضـ ـلك من بين سيد ومسود
عرف العالمون فضلك بالعـ ـلم وقال الجهال بالتقليد

والذي كان يعاب عليه شدته في معاملة العمال الذين يصادرهم لخيانتهم في الأعمال وكان إذا قال له أحد منهم أيها الوزير ارحمني قال الرحمة خور في الطبيعة.

أحمد بن أبي دؤاد الإيادي: كان من المعتصم كيحيى بن أكثم من المأمون ولذلك سقنا خبره في عداد الوزراء.

أصل بيته فيما يقال من إحدى قرى قنسرين كان أبوه يتجر إلى الشام أما هو فولد بالبصرة (سنة ١٦٠) ونشأ بها في طلب العلم وخاصة الفقه والكلام وصحب هياج بن العلاء السلمي وكان من أصحاب واصل بن عطاء والغزالي كبير المعتزلة ومقدمهم.

فمال أحمد من أجل ذلك إلى الاعتزال وكان يحضر ببغداد مجلس القاضي يحيى ابن أكثم فلما أمره المأمون أن يختار جماعة من الفقهاء يجالسونه ويبحثون معه كان أحمد في هؤلاء المختارين فكان المأمون إذا شرع أحمد في الكلام ينظر إليه ويتفهم ما يقول ويستحسنه فأمره أن يحضر مجلسه دائماً ولا يتأخر عنه وأحبه المأمون جداً وخف على قلبه حتى قال لأخيه المعتصم في وصيته (وأبو عبد اللّه أحمد بن أبي دؤاد لا يفارقك وأشركه في المشورة في كل أمرك فإنه موضع لذلك منك) فولاه المعتصم قضاء القضاة واختص به حتى كان لا يفعل فعلاً باطناً ولا ظاهراً إلا برأيه فكان له في حياة المعتصم مركز لا يدانيه فيه أحد حتى قال أزون بن إسماعيل ما رأيت أحداً قط أطوع لأحد من المعتصم لابن أبي دؤاد وكان يسأل الشيء اليسير فيمتنع منه ثم يدخل ابن أبي دؤاد فيكلمه في أهله وفي الثغور وفي الحرمين وفي أقاصي أهل المشرق والمغرب فيجيبه إلى كل ما يريد ولقد كلمه ما مقدار ألف ألف ليحفر بها أ أقا اسان فقال المعتصم وما علي من هذا النهر فقال يا أمير المؤمنين إن اللّه تعالى يسألك عن النظر في أمر أقصى رعيتك كما يسألك عن النظر في أمر أدناها ولم يزل يرفق به حتى أطلقها.

وقال الحسين بن الضحاك الشاعر لبعض المتكلمين: ابن أبي دؤاد عندنا لا يعرف اللغة

obeikandi.com

وعندكم لا يحسن الكلام وعند الفقهاء لا يحسن الفقه وعند المعتصم يحسن هذا كله.

كان ابن أبي دؤاد ممن يحبون الخير للناس وله شرف نفس وجمال خلق عربي حتى عرف بالمروءة وكان يحمل في سبيلها ما لا يحمله أحد قال ابن عبد الرحمٰن الكلبي: ابن أبي دؤاد روح كله من قرنه إلى قدمه. ومن طريف نوادره في المروءة أن الأفشين كان يحسد أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي للعربية والشجاعة فاحتال عليه حتى شهد عليه بجناية قتل فأخذه وأحضر السياف لقتله وبلغ الخبر ابن أبي دؤاد فخاف إذا هو ذهب إلى المعتصم وكلمه في شأنه أن يكون الكلام بعد فوات الوقت فركب فوراً مع من حضره من العدول ودخل على الأفشين وقد جيء بأبي دلف ليقتل فوقف وقال إني رسول أمير المؤمنين إليك وقد أمرك ألا تحدث في القاسم بن عيسى حدثاً حتى تسلمه إلي ثم التفت إلى العدول وقال اشهدوا أني أديت إليه الرسالة عن أمير المؤمنين والقاسم حي معافى فقالوا شهدنا وخرج فلم يقدر الأفشين على تنفيذ مراده وذهب ابن أبي دؤاد إلى المعتصم من وقته فقال له يا أمير المؤمنين قد أديت عنك رسالة لم تقلها ما أعتد بعمل خير خيراً منها وإني لأرجو لك الجنة بها ثم أخبره الخبر فصوب المعتصم رأيه ووجه من أحضر القاسم فأطلقه ووصله وعنف الأفشين على ما كان عزم عليه.

وكان وجود ابن أبي دؤاد مع المعتصم مما عدل مزاجه لأنه شجاع شديد عجول فكان إذا أسرع إليه الغضب هدأ ابن أبي دؤاد من حدته وأراه وجه الأناة والعفو فلا يسعه إلا أن يسير في سبيلهما وكان له عليه من الدالة وعلو المركز ما يستعين به على تنفيذ غرضه ـ غضب المعتصم مرة على خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني وأشخصه من ولايته لعجز لحقه في مال طلب منه فجلس المعتصم لعقوبته وكان خالد قد طرح نفسه على ابن أبي دؤاد فتكلم فيه فلم يجبه المعتصم فلما جلس المعتصم حضر أحمد وهو قاضي القضاة فجلس دون مجلسه المعتاد فقال له المعتصم يا أبا عبد اللّٰه جلست في غير مجلسك فقال ما ينبغي لي أن أجلس إلا دون مجلسي هذا فقال له وكيف؟ قال لأن الناس يزعمون أنه ليس موضعي موضع من يشفع في رجل فيشفع ـ فقال المعتصم ارجع إلى مجلسك. قال مشفعاً أو غير؟ قال بل مشفعاً فارتفع إلى مجلسه ثم قال إن الناس ما يعلمون رضاء أمير المؤمنين إن لم يخلع عليه فأمر بالخلع عليه فقال يا أمير المؤمنين قد استحق هو وأصحابه رزق ستة أشهر لا بد أن يقبضوها وإن أمرت لهم بها في هذا الوقت قامت مقام الصلة فقال قد أمرت له بها فخرج خالد وعليه الخلع وبين يديه المال وإن الناس ينتظرون الإيقاع به فصاح به رجل الحمد للّٰه على خلاصك يا سيد العرب فقال له أسكت سيد العرب واللّٰه أحمد بن أبي دؤاد. وكان في ابن أبي دؤاد عصبية عربية ولعل هذا أفاد العرب وحفظ لهم شيئاً من مقامهم في عهد المعتصم الذي جعل القوة كلها لغلمان الأتراك الذين استكثر منهم ومن قوادهم.

وكان ابن أبي دؤاد مع ذلك شاعراً أديباً مجيداً فصيحاً بليغاً ذكره دعبل في طبقات الشعراء ومن مأثور قوله: ثلاثة ينبغي أن يبجلوا وتعرف أقدارهم العلماء وولاة العدل والإخوان فمن استخف بالعلماء أهلك دينه ومن استخف بالولاة أهلك دنياه ومن استخف بالإخوان أهلك مروءته ولأبي تمام فيه مدائح جليلة منها قصيدته التي مطلعها:

سقى عهد الحمى سيل العهاد ... وروض حاضر منه وباد

يقول فيها:

لقد أفنت مساوي كل دهر ... محاسن أحمد بن أبي دؤاد
منى تحلل به تحلل جناباً ... رضيعاً للسواري والغوادي
ترشح نعمة الأيام فيه ... وتقسم منه أرزاق العباد
وما اشتبهت طريق المجد إلا ... هداك لقبلة المعروف هاد
وما سافرت في الآفاق إلا ... ومن جدواك راحلتي وزادي
مقيم الظن عندك والأماني ... وإن قلقت ركابي في البلاد
معاد البعث معروف ولكن ... ندى كفيك في الدنيا معادي

العلويون في عهد المعتصم:

لأول عهده توفي محمد الجواد بن علي الرضا تاسع أئمة الشيعة الإمامية الاثني عشرية وكانت وفاته (سنة ٢٢٠ وسنه ٢٥ سنة) وكانت تحته أم الفضل بنت المأمون فحملت إلى قصر عمها المعتصم فتولى الإمامة بعده ابنه أبو الحسن علي الهادي وكانت سنه حين مات أبوه سبع سنين.

وخرج على المعتصم من الزيدية محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي. كان مقيماً بالكوفة ثم خرج منها إلى الطالقان من خراسان يدعو إلى الرضا من آل محمد ﷺ فاجتمع إليه بها ناس كثير فاهتم بأمره عبد اللّه بن طاهر أمير خراسان وبعث له البعوث فكان بين الفريقين وقعات بناحية الطالقان وجبالها فهزم هو وأصحابه فخرج هارباً يريد بعض كور خراسان كان أهله كاتبوه فلما وصل إلى نسا دل عليه فأخذه عاملها واستوثق منه وبعث به إلى عبد اللّه بن طاهر فأرسل به إلى المعتصم فحبس بسامرا (سنة ٢١٩) فأقام فيه حتى كانت ليلة الفطر واشتغل الناس بالعيد والتهنئة احتال للخروج بواسطة رجال من شيعته فهرب ولم يعرف له خبر وقد انقاد إلى إمامته كثيرون من الزيدية ومنهم كثير يزعمون أنه لم يمت وأنه حي يرزق وأنه يخرج فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وأنه مهدي هذه الأمة وأكثر هؤلاء بناحية الكوفة وجبال

طبرستان والديلم وكثير من كور خراسان وبقي ذلك الاعتقاد حتى (سنة ٢٣٢) كما قال المسعودي في مروج الذهب.

الجيش:

قدمنا ما كان في عهد المأمون من كثرة العناصر الغريبة عن الأمة العربية في جيش الدولة العباسية وذلك أمر قضت به الأحوال لذلك العهد كما شرحنا ذلك فلما جاء المعتصم أربى على أسلافه في ذلك فقد كان يغلب عليه من أخلاق الرجال الشجاعة والميل إلى الشجعان: رأى أن من ببغداد من جنود الأبناء لا يوثق بهم لكثرة اضطرابهم وقيامهم على الخلفاء ورأى للأتراك من شدة البأس والنجدة فأراد أن يكون منهم جيشاً يستعز به على هؤلاء الأبناء ويرغم أنوفهم فاستكثر من غلمان الأتراك وأحضر منهم عدداً عظيماً فوق ما كان منهم في عهد أخيه المأمون وأسكنهم بغداد واستغنى عن جيوش العرب بمرة وأسقطهم كافة من الدواوين بحيث لم يبق مرتزق لعهده إلا من كان من الأتراك أو الأبناء إلا أنه اصطنع قوماً من حوف مصر ومن حوف اليمن وحوف قيس وسماهم المغاربة وأتى بكثير من الفراغنة أهل فرغانة والأشروسنية أهل أشروسنة فكثر جيشه وكان هؤلاء القوم عجماً جفاة يركبون الدواب فيركضون في طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة والصبي فيأخذهم الأبناء فينكسونهم عن دوابهم ويجرحون بعضهم فربما هلك من الجراح بعضهم فشكا الأتراك ذلك إلى المعتصم وتأذت به العامة فرأى المعتصم أن بقاء هؤلاء الأتراك في وسط بغداد وبجانب جنود الأبناء خطر عليهم فكان ذلك سبباً لتفكيره في اختطاط حاضرة جديدة له ولهذا الجيش الجديد الذي أعجب به فاختط سامرا.

وكان المعتصم يلبس هؤلاء الجنود أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبانهم بالزي عن سائر جنوده واشتهر منهم قواد اصطنعهم المعتصم ورفع من أقدارهم وجعل بيدهم مستقبل الخلافة الإسلامية وسنذكر بعضهم:

١ ـ الأفشين حيدر بن كاوس وهو تركي من أشروسنة كورة من بلاد ما وراء النهر شرقيها فرغانة وغربيها سمرقند وشماليها الشاش وبعض فرغانة وجنوبيها بعض حدود كش والضفاينان وغيرهما ومدينتها التي يسكنها الولاة بنجكث.

كان حيدر في حاشية المعتصم في حياة المأمون وأصله من أبناء ملوك أشروسنة الذين يلقب الواحد منهم بالأفشين ولما رأى شجاعته وشهامته استعان به فيما ولي من الأعمال وكان المعتصم والياً على مصر والشام فأرسله نيابة عنه لإزالة الاضطراب في برقة ومصر فنجح فيهما. ولما استخلف المعتصم كان الأفشين في مقدمة قواده فعين (سنة ٢٢٠) لحرب بابك كما تقدم ذكره فظهرت على يديه عظائم الأعمال وإحكام سير الجيوش حتى ظفر بخصمه مع مناعة موقعه. ولما

أمره المعتصم بالعود إلى سامرا كان يوجه إليه كل يوم من حين فصل من برزند إلى أن وافى سامرا فرساً وخلعة. ولما حضر توجه وألبسه وشاحين بالجوهر ووصله بعشرين ألف ألف درهم منها عشرة آلاف ألف صلة وعشرة آلاف ألف يفرقها في أهل عسكره وعقد له على السند. ولما غزا المعتصم عمورية كان قائداً لإحدى الفرق الثلاث التي دخلت بلاد الروم وهو الذي تولى حرب توفيل ملك الروم وهزم جنده. كل ذلك الإعظام والإجلال جعل الأفشين يمني نفسه بالملك والاستقلال في بلاده أشروسنة يوماً ما وأول ما عرف ذلك منه أنه كان وهو يحارب بابك لا يأتيه هدية ولا مال إلا وجه به إلى أشروسنة فيجتاز ذلك بعبد اللّه بن طاهر أمير خراسان فيكتب إلى المعتصم يخبره فيكتب المعتصم إلى ابن طاهر يأمره بتعريف جميع ما يوجه الأفشين من الهدايا إلى أشروسنة فيفعل ذلك عبد اللّه. كان الأفشين كلما تهيأ عنده مال حمله أوساط أصحابه بقدر طاقتهم فكان الرجل يحمل من الألف فما فوقه من الدنانير في وسطه فأخبر عبد اللّه بذلك. فبينا هو في يوم من الأيام وقد نزلت رسل الأفشين نيسابور ومعهم الهدايا وجه إليهم ابن طاهر وأخذهم ففتشهم فوجد في أواسطهم هميانين فأخذهما منهم وقال لهم من أين لكم هذا المال فقالوا هذه هدايا الأفشين وأمواله فقال كذبتم لو أراد الأفشين أخي أن يرسل بهذه الأموال لكتب إلي يعلمني به لأبذرقه «أحرسه» لأن هذا مال عظيم وأنتم لصوص فأخذ عبد اللّه المال وأعطاه جنده وكتب إلى الأفشين يذكر له ما قال القوم وقال أنا أنكر أن تكون وجهت بهذا المال إلى أشروسنة ولم تكتب إلي تعلمني لأبذرقه فإن كان هذا المال ليس لك فقد أعطيته الجند مكان المال الذي يوجه إلي أمير المؤمنين في كل سنة وإن كان المال لك كما زعم القوم فإذا جاء المال من قبل أمير المؤمنين رددته إليك وإن يكن غير ذلك فأمير المؤمنين أحق بهذا المال وإنما دفعته إلى الجند لأني أريد أن أوجههم إلى بلاد الترك. فكتب إليه يعلمه أن ماله ومال أمير المؤمنين واحد ويسأله إطلاق القوم ففعل ذلك ابن طاهر.

رأى الأفشين أنه لم يتم له أمر ما دام ابن طاهر بخراسان فانتظر الفرص ليحمل المعتصم على عزله وتوليته مكانه وحينئذٍ يتسع له المجال. كان ببلاد طبرستان دهقان من أبناء ملوكها اسمه مزيار بن قاون بن وندادهرمز وكان منافراً لآل طاهر لا يحمل إليهم الخراج ويحمله إلى المعتصم فكان إذا وصل المال همذان يأمر المعتصم رجلاً من قبله فيستوفيه ثم يسلمه إلى صاحب عبد اللّه بن طاهر ليرده إلى خراسان فكانت هذه الحال بينهما حتى زادت المنافرة وبلغت حدها الأقصى فأراد الأفشين انتهاز هذه الفرصة فكتب إلى مازيار يقويه على خلاف ابن طاهر ويخبره أن المعتصم ولاه إمارة خراسان وأراد الأفشين بذلك أن يخالف مازيار فيولي المعتصم الأفشين حربه ويكون له مع ذلك ولاية خراسان ودعا ذلك مازيار إلى إظهار الخلاف وشق عصا الطاعة ومنع

الخراج وتحصن بجبال طبرستان. بلغ ذلك عبد اللّه بن طاهر فوجه إليه عمه الحسن بن الحسين بن مصعب وضم إليه جيشاً كثيفاً يحفظ جرجان ووجه المعتصم من قبله محمد بن إبراهيم بن مصعب في جمع كثيف وضم إليه الحسن بن قاري الطبري القائد ومن كان بالباب من الطبرية ووجه منصور بن الحسن صاحب دنباوند إلى مدينة الري ليدخل طبرستان من ناحية الري ـ ولم ينتدب الأفشين لشيء مما كان ظن وقد أحاطت هذه الجنود بطبرستان من كل جانب وهزمت جنود مازيار ـ فرأى أن يستأمن إلى الحسن بن الحسين فاستأمن إليه هو وأخوه قوهيار فأمر عبد اللّه بن طاهر بتسليم مازيار وأهل بيته إلى محمد بن إبراهيم فحملهم إلى المعتصم بسامرا.

تحقق المعتصم من كل ما بلغه عن الأفشين واطلع على الكتب التي كان أرسلها أخو الأفشين إلى مازيار وعلم الأفشين ذلك فعزم على الهرب وصار يدبر التدابير الشنيعة للفتك بالمسلمين وقد وصل شيء من علم ذلك إلى قائد من القواد الأشروسنية فأخبر به المعتصم فأمر بحضور الأفشين ولما حضر أخذ سواره وحبسه ثم أحضره في مجلس عام لتبكيته ومناظرته وكان الذي تولى ذلك الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فثبت من التحقيق أن الرجل لا يزال على كفره وأنه كان يكيد المكايد للوصول إلى ملك بلاده وأن أهل أشروسنة كانوا يخاطبونه باله الآلهة ثم ثبت أنه كان يكاتب المازيار وشهد المازيار أن أخا خاش كتب إلى قوهيار أخي مازيار (إنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيري وغيرك وغير بابك فأما بابك فإنه بحمقه قتل نفسه ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فأبى حمقه إلا أن دلاه فيما وقع فيه فإن خالفت لم يكن للقوم ما يرمونك به غيري ومعي الفرسان وأهل النجدة والبأس فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة المغاربة والعرب والأتراك والعربي بمنزلة الكلب اطرح له كسرة ثم اضرب رأسه بالدبوس وهؤلاء الذباب (يعني المغاربة) إنما هم أكلة رأس وأولاد الشياطين (يعني الأتراك) فإنما هي ساعة حتى تنفد سهامهم ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتي على آخرهم ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه (أيام العجم) ـ ولما تبين أمره قال القاضي أحمد بن أبي دؤاد قد وضح لكم أمره فعليك به يا بغا فأعيد إلى محبسه حتى مات وبعد موته أخرج وصلب على باب العامة حتى يراه الناس ثم أحرق مع خشبته.

٢ ـ إيتاخ: كان غلاماً خزرياً لسلام الأبرش طباخاً فاشتراه المعتصم (سنة ١٩٩) وكان لإيتاخ رجولة وبأس فرفعه المعتصم وولاه بعد الخلافة معونة سامرا مع إسحاق ابن إبراهيم وكان من قبله رجل ومن قبل إسحاق رجل وكان من أراد المعتصم قتله فعند إيتاخ يقتل وبيده يحبس وولاه المعتصم قيادة إحدى الفرق الثلاث التي دخلت بلاد الروم إلى عمورية وقد استمر إيتاخ على منصبه وزعامته مدة الواثق وقتل لأول عهد المتوكل (سنة ٢٣٥) ففي (سنة ١٩٩) اشتري بالمال

وفي عهد الواثق كانت المملكة في يده فكان إليه الجيش والمغاربة والأتراك والبريد والحجابة ودار الخلافة ـ وما الذي بقي بعد هذا.

٣ ـ أشناس: غلام تركي اشتراه المعتصم ورقاه لما ظهر من شجاعته وكان في غزوة عمورية على مقدمة الجيش واستخلفه مرة على سامرا حينما خرج منها وزاده رفعة (سنة ٢٢٥) بأن أجلسه على كرسي وتوجه ووشحه كما فعل بالأفشين وزوج ابنته أترنجة للحسن بن الأفشين وأحضر عرسه عامة أهل سامرا وكان يباشر بنفسه تفقد من حضر. وكانت تلك منزلته عند الواثق حتى أنه في (سنة ٢٢٨) توجه وألبسه وشاحين بالجوهر ولم يزل في عظمته حتى توفي (سنة ٢٣٠).

وغير هؤلاء كان من القواد عجيف بن عنبسة ووصيف وبغا الكبير أبو موسى وغيرهم.

كل هؤلاء قواد من الأتراك اختارهم المعتصم لشجاعتهم وسلمهم زمام ملك آبائه وأنزل العرب عما كان لهم من قيادة الجيوش وأسقط أسماءهم من الدواوين واعتز بهؤلاء المجلوبين فجعل بذلك بنيه تحت سلطان هؤلاء الغلف القلوب يتصرفون فيهم كما يشاءون. ومع اغترار المعتصم بهؤلاء القواد كان يحس بما وقع فيه من الخطأ باختيارهم ولا سيما أنه ليس لأكثرهم نسب معروف فقد حدث إسحاق بن إبراهيم أن المعتصم قال له يا إسحاق في قلبي أمر أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة وإنما بسطتك في هذا الوقت لأفشيه لك ـ نظرت إلى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم اصطنع المأمون طاهر بن الحسين فقد رأيت وسمعت وعبد اللّه بن طاهر فهو الرجل الذي لم ير مثله وأنت فأنت واللّه الذي لا يعتاض منك السلطان أبداً وأخوك محمد بن إبراهيم وأين مثل محمد، وأما أنا فاصطنعت الأفشين فقد رأيت إلى ما صار إليه أمره وأشناس ففشل رأيه وإيتاخ فلا شيء ووصيف فلا مغنى فيه ـ فقال إسحاق جعلني اللّه فداك أجيب وعلي أمان من غضبك قال قل ـ قلت يا أمير المؤمنين أعزك اللّه نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها واستعمل أمير المؤمنين فروعاً لم تنجب إذ لا أصول لها ـ فقال يا إسحاق لمقاساة ما مر بي في طول هذه المدة أسهل علي من هذا الجواب.

المعتصم وحده يتحمل تبعة أكثر ما حل بالعباسيين من بعده من اضطراب أمرهم وضعف سلطانهم وما حل بالأمة العربية من غلبة هذا العنصر الغريب على أمرها. لم يكن الرجل بعيد النظر في العواقب وإنما كان شجاعاً جسوراً يحب الشجعان ويعتز بهم مهما كان شأنهم سواء كانت لهم أحساب يحمونها أم ليست لهم أحساب وسواء كان يهمهم شأن الدولة وبقاؤها أم لا؟ وهذا خطأ عظيم يحط بقدر الدول وينزلها من عظمتها.

ومن النتائج التي سببها غطرسة هؤلاء الجنود الغرباء وعدم احترامهم لحقوق الأمة ثورة أبي حرب المبرقع اليماني بفلسطين. وذلك أن بعض الجند أراد النزول في داره وهو غائب عنها

وذلك أمر لم يكن معروفاً في الدولة العربية قبل ذلك وكان في الدار إما زوجة أبي حرب وإما أخته فمانعته من ذلك فضربها بسوط كان معه فاتقته بذراعها فأصاب السوط ذراعها فأثر فيها فلما رجع أبو حرب إلى منزله شكت إليه ما فعل بها وأرته الأثر فاشتمل سيفه ومشى إلى الجندي وهو غار فقتله ثم هرب وألبس وجهه برقعاً كيلا يعرف فصار إلى جبل من جبال الأردن فطلبه السلطان فلم يعرف له خبر وكان يظهر بالنهار فيقعد على الجبل الذي أوى إليه متبرقعاً فيراه الرائي فيأتيه فيذكره ويحرضه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويذكر السلطان وما يأتي إلى الناس ويعيبه فما زال ذلك دأبه حتى استجاب له قوم من حراثي أهل تلك الناحية وأهل القرى فلما كثرت غاشيته من هذه الطبقة من الناس دعا أهل البيوتات من تلك الناحية فاستجاب له منهم جماعة من رؤساء اليمانية منهم رجل يقال له ابن بيهس كان مطاعاً في أهل اليمن فاتصل خبره بالمعتصم فبعث إليه رجاء بن أيوب الحضاري في زهاء ألف رجل من الجند فلما صار إليه وجده في عالم من الناس زهاء مائة ألف فتريث رجاء حتى كان أول عمارة الناس الأرضين وحراثتهم وانصرف من كان معه من الحراثين إلى الحراثة وأرباب الأرضين إلى أراضيهم وبقي أبو حرب في زهاء ألف أو ألفين فناجزه رجاء وأسره رجل ممن معه ثم سار به إلى المعتصم أسيراً.

الخراج:

كما يمتاز عصر المأمون بالثبت الذي نقله العلامة ابن خلدون في مقدمة تاريخه عن كتاب جراب الدولة يمتاز عصر المعتصم بالثبت الذي أورده قدامة بن جعفر في كتاب الخراج له عن مقدار الجباية في عهد المعتصم ونحن نورد خلاصته:

الجهـة	مقدار الجباية بالدراهم أو الدنانير
سواد العراق	١١٤٥٦٧٦٥٠ درهم
الأهواز	٢٣٠٠٠٠٠٠ درهم
فارس	٢٤٠٠٠٠٠٠ درهم
كرمان	٦٠٠٠٠٠٠ درهم
مكران	١٠٠٠٠٠٠ درهم
أصبهان	١٠٥٠٠٠٠٠ درهم
سجستان	١٠٠٠٠٠٠ درهم
خراسان	٣٧٠٠٠٠٠٠ درهم
حلوان	٩٠٠٠٠٠٠ درهم

الماهين	٩٨٠٠٠٠٠	درهم
همذان	١٧٠٠٠٠٠	درهم
ماسبذان	١٢٠٠٠٠٠	درهم
مهرجان قذق	١١٠٠٠٠٠	درهم
الإيغارين	٣١٠٠٠٠٠	درهم
قم وقاشان	٣٥٠٠٠٠٠	درهم
أذربيجان	٤٠٠٠٠٠٠	درهم
الري ودنباوند	٢٠٠٨٠٠٠٠	درهم
قزوين وزنجان وأبهر	١٨٢٨٠٠٠	درهم
قومس	١١٥٠٠٠٠	درهم
جرجان	٤٠٠٠٠٠٠	درهم
طبرستان	٤٢٨٠٧٠٠	درهم
تكريت والطبرهان	٩٠٠٠٠٠	درهم
شهرزور والصامغان	٢٧٥٠٠٠٠	درهم
الموصل وما إليها	٦٠٠٠٠٠٠	درهم
قردى وبازبدى	٣٢٠٠٠٠٠	درهم
ديار ربيعة	٩٦٢٥٠٠٠	درهم
أرذن وميافارقين	٤٢٠٠٠٠٠	درهم
آمد	١٠٠٠٠٠	درهم
ديار مصر	٢٠٠٠٠٠٠	درهم
أعمال طريق الفرات	٦٠٠٠٠٠	درهم
	٢٩٠٠٠٠٠	درهم
المجموع	٣١٤٢٧١٣٥٠	درهم

قنسرين والعواصم	٣٦٠٠٠٠	دينار
جند حمص	٢١٨٠٠٠	دينار
جند دمشق	١١٠٠٠٠	دينار
جند الأردن	١٠٩٠٠٠	دينار

obeikandl.com

جند فلسطين	٢٩٥٠٠٠	دينار
مصر والإسكندرية	٢٥٠٠٠٠٠	دينار
الحرمين	١٠٠٠٠٠	دينار
اليمن	٦٠٠٠٠٠	دينار
اليمامة والبحرين	٥١٠٠٠٠	دينار
عمان	٣٠٠٠٠٠	دينار
	٥١٠٢٠٠٠	دينار

وذلك غريب مما كان في حياة المأمون لأن الأحول لم تتغير تغيراً يذكر.

العلاقات الخارجية:

قدمنا أن الذي كان يعاصر المعتصم من ملوك الروم توفيل بن ميخائيل وكان ينتهز الفرص لينتقم من المسلمين الذين دوخوه وألزموه أن يدفع الفدية قهراً فحدث أنه لما كان الأفشين يحارب بابك وقد ضيق عليه أن كتب بابك إلى ملك الروم يقول: إن ملك العرب قد وجه معظم عساكره إلي ولم يبق على بابه أحد فإن أردت الخروج إليه فليس في وجهك أحد يمنعك وكان يطمع أن ملك الروم إذا تحرك ينكشف عنه بعض ما هو فيه فلم يلبث توفيل أن خرج في مائة ألف مقاتل حتى أتى زبطرة ومعه جمع من المحمرة الذين أجلاهم إسحاق بن إبراهيم عن الجبال كما ذكرنا ذلك في حروب البابكية فلما دخل زبطرة قتل من فيها من الرجال وسبى النساء والذرية وأحرق المدينة ومضى من فوره إلى ملطية فأغار على أهلها وعلى أهل حصن من حصون المسلمين وسبى من المسلمات فيما قيل أكثر من ألف امرأة ومثّل بمن صار في يده من المسلمين وسمل أعينهم وقطع آذانهم وآنافهم. بلغت تلك الأخبار المعتصم بسامرا فاشتد عليه وصاح في قصره النفير ثم ركب دابته وسمط خلفه شكالاً وسكة حديد وحقيبة فلم يستقم له الخروج إلا بعد التعبئة ولكنه أرسل مقدمته لتكون مدداً لأهل زبطرة فلما شارفتها وجدت ملك الروم قد رحل عنها فوقفوا قليلاً حتى تراجع الناس إلى قراهم واطمأنوا.

فلما انتهى أمر بابك سأل المعتصم أي بلاد الروم امنع وأحصن فقيل عمورية وهي مسقط رأس توفيل كما أن زبطرة مسقط رأس المعتصم ولم تكن غزيت قبل ذلك فتجهز المعتصم جهازاً لم يتجهزه خليفة قبله من السلاح والعدد والآلة وحياض الأدم والبغال والروا | والقرب وآلة الحديد والنفط وكانت التعبئة هكذا ـ على المقدمة أشناس ويتلوه عمد بن إبراهيم المصعبي وعلى الميمنة إيتاخ وعلى الميسرة جعفر بن دينار بن عبد الله الخياط وأمر الأفشين أن يمضي فيدخل

بلاد الروم من درب الحدث وسمى له يوماً أمره أن يكون وصوله فيه إلى أنقرة وقدر هذا اليوم بنفسه لأشناس الذي أمره أن يكون دخوله من درب طرسوس. ولما وصل أشناس إلى مرج الأسقف ورد عليه كتاب من المعتصم يأمره بالتوقف لأنه بلغه عن ملك الروم أنه على نهر اللامس ويريد العبور ليكبس أشناس وجنده فأقام بالمرج ثلاثة أيام ثم علم بواسطة الجواسيس أن ملك الروم ارتحل عن نهر اللامس يريد مقابلة الأفشين فأرسل بخبر ذلك إلى المعتصم فبعث الأدلاء مسرعين يخبرون الأفشين بذلك وأمره أن يقف مكانه حذراً من مواقعة ملك الروم قبل أن تجتمع الجيوش فلم تصل هذه الأدلاء إلى الأفشين فتم على مسيره حتى التقى بملك الروم فكانت بينهما موقعة هائلة كانت على الأفشين أول النهار ثم أعاد الكرة في الفرسان فغلب ملك الروم وهزمه هزيمة منكرة وتفرقت عنه الجنود. أما عسكر أشناس والمعتصم فإنهما وردا أنقرة من غير أن يلقيا حرباً لتفرق الجنود التي كان الملك قد جعلها لمحاربة المعتصم ثم ورد الأفشين بعد مقدمهما بيوم أنقرة.

وحينئذ قسم المعتصم الجيش ثلاثة أقسام قسم فيه أشناس في الميسرة وقسم فيه المعتصم وهو القلب وقسم فيه الأفشين وهو الميمنة وبين كل قسم فرسخان فسارت هذه الأقسام على تعبئة وسارت هذه الأقسام حتى بلغت عمورية وبينها وبين أنقرة سبع مراحل كان أول من وردها أشناس فدار حولها دورة ثم نزل على ميلين منها وجاء بعده المعتصم فدار حولها دورة ثم جاء الأفشين فكذلك تحصن أهل عمورية وتحرزوا فحصرها الجيش المعتصمي وكان لكل واحد من القواد أبراج على قدر أصحابه قلة وكثرة ونصبت المجانيق فضربت بها الأسوار لإتلافها حتى سقط منها جانب في ناحية المعتصم بعد معاناة شديدة وأعمال جسام ثم حصل القتال في ناحية هذه الثلمة بعد أن ردمت الخنادق ولم يزل القتال مستمراً حتى اقتحم المسلمون عمورية عنوة وغنموا منها مغانم كثيرة. وانتقم المعتصم من الروم بما فعلوه في زبطرة وملطية وبعد انتهاء الواقعة عاد المعتصم إلى طرسوس وكانت إناخته على عمورية في (٦ رمضان سنة ٢٢٣) وقفل عنها بعد (٥٥ يوماً).

ومن غريب الأمور وأكبر الجرائم أن العباس بن المأمون اتفق مع بعض قواد المعتصم من الاتراك على أن يغتالوا المعتصم ويقيموه خليفة مقامه، تآمروا على ذلك وهم في وجه العدو والعهد قريب باصطناع المعتصم لهم وإغداق النعم عليهم فلم يتم لهم غرض واطلع المعتصم على سر مؤامرتهم فأخذ جميع أولئك القواد وقتلهم وحبس العباس حتى مات من شدة الأذى وكان الذي تولى كبر ذلك عجيف بن عنبسة.

ولما ورد المعتصم سامرا كان دخوله إليها يوماً مشهوداً وامتدحه أبو تمام حبيب ابن أوس بقصيدته المشهورة التي أولها:

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

يقول فيها:

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض في أثوابها القشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... عنك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بني الإسلام في صعد ... والمشركين ودار الشرك في صبب
أم لهم لو رجوا أن تفتدي جعلوا ... فداءها كل أم برة وأب
وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها ... كسرى وصدت صدوداً عن أبي كرب
من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد ... شابت نواصي الليالي وهي لم تشب
بكر فما افترعتها كف حادثة ... ولا ترقت إليها همة النوب
حتى إذا مخض اللّه النين لها ... مخض الحليبة كانت زبدة الحقب
أتتهم الكربة السوداء سادرة ... منها وكان اسمها فراجة الكرب
جرى لها الفأل نحساً يوم أنقرة ... إذ غودرت وحشة الساحات والرحب
ولما رأت أختها بالأمس قد خرجت ... كان الخراب لها أعدى من الحرب
كم بين حيطانها من فارس بطل ... قاثي الذوائب من آني دم سرب
بسنة السيف والخطى من دمه ... لا سنة الدين والإسلام مختضب
لقد تركت أمير المؤمنين بها ... للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى ... يقله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الضحى رغبت ... عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة ... وظلمة من دخان في ضحى شحب
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت ... والشمس واجبة في ذا ولم تجب
تصرح الدهر تصريح الغمام لها ... عن يوم هيجاء منها طاهر جنب

ويقول في ختامها:

خليفة اللّه جازى اللّه سعيك عن ... جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها ... تنال إلا على جسر من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رحم ... موصولة أو ذمام غير مقتضب
فبين أيامك اللاتي نصرت بها ... وبين أيام بدر أقرب النسب
أبقت بني الأصفر المصفر كاسمهم ... صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

صفات المعتصم:

كانت أظهر صفات المعتصم الشجاعة والإقدام وشدة البأس وكان يحب العمارة ويقول: إن فيها أموراً محمودة فأولها عمران الأرض التي يحياها العالم وعليها يزكو الخراج وتكثر الأموال ويعيش البهائم وترخص الأسعار ويكثر الكسب ويتسع المعاش وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك إذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة عشر درهم فلا تؤامرني فيه. ولم يكن للمعتصم نفوذ في العلم كأخيه المأمون ولا كأبيه الرشيد وإنما كان همه الجيش وتحسينه.

ومن آثاره اختطاط مدينة سامرا وها نحن أولاء نقص شيئاً من أمرها.

لما ضاقت بغداد عن عسكر المعتصم من الأتراك قال لأحد كتابه: إني أتخوف أن يصيح هؤلاء الحربية صيحة فيقتلوا غلماني فإذا ابتعت لي موضع سامرا كنت فوقهم فإن رابني رائب أتيتهم في البر والبحر حتى آتي عليهم فقصد كاتبه موضع سامرا وهو على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخاً (١٥٠ كيلومتراً) فابتاع ديراً كان هناك بخمسة آلاف درهم وابتاع بستاناً كان في جانبه بمثل ذلك ولما تم أمر البيع خرج المعتصم في آخر (سنة ٢٢٠) حتى نزل القاطول وهو نهر سامرا كان احتفره الرشيد وبني عليه قصراً فنزل المعتصم هناك وبدأ بالبناء (سنة ٢٢١) فبنى داراً له وأمر عسكره بمثل ذلك فعمر الناس حول قصره وبنى مسجداً جامعاً في طرف الأسواق وأنزل أشناس بمن ضم إليه من القواد كرخ سامرا وهو كرخ فيروز. وما زال البنيان يتسع حتى صارت مدينة من أعظم الحواضر الإسلامية وكادت تضارع بغداد وأعظم اتساع وحضارة لها كان في عهد المتوكل بن المعتصم وسيذكر ذلك بعد.

وفاة المعتصم:

احتجم المعتصم في أول يوم من المحرم (سنة ٢٢٧) فأصيب عقب ذلك بعلته التي قضت عليه يوم الخميس لثماني ليال مضت من شهر ربيع الأول من تلك السنة ورثاه محمد بن عبد الملك الزيات فقال:

قد قلت إذ غيبوك واصطفقت عليك أيد بالتراب والطين
اذهب فنعم الحفيظ كنت على الدنيا ونعم الظهير للدين
لا جبر اللّه أمة فقدت مثلك إلا بمثل هارون

ولاية العهد:

ولى المعتصم عهده ابنه هارون ولم يجعل معه في الولاية غيره.